

وثيقة جديدة

حول العامية في المغرب والأندلس

للمستشرق جورج كولا
أستاذ في كوليج دو فرانس

وأبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري قد ولد في المرية سنة 724-1324 م وتوفي بعد سنة 770-1369 . وقد عرف خاصة لحد الآن كشاعر ، وكذلك كمؤلف لكتاب حول الوباء الذي جرف بالمرية بين الف 1348-1349 والمؤلف الثاني بين المصنفين المشار اليهم في المدخل الموجز للنص العربي - هو محمد بن هانئ السبتي الذي يجب ان لا نخلط بينه وبين الشاعر التونسي المشهور السذي يحمل نفس الاسم والذي ورد على اسبانية ليستوطن بها فتوفي عام 362-973 م وهذا الشاعر هو محمد بن هانئ الاندلسي ، و مترجما هو محمد بن هانئ اللخمي السبتي (3) الذي ولد في سبتة من ابوين اشبيليين ، وعاش في غرناطة وتوفي بجبل طارق سنة 733-1332 م

وقد أشير من بين مصنفاته الى (انشاد الضسوال وارشاد (4) السؤال) الذي يعالج أغلاط العامية ويفيدنا مدخل الكتاب كذلك ان ابن هانئ اقتصر في مصنفه هذا على ترتيب ما جمعه لغوي آخر هو ابن هشام .

وهذا الشخص - أيضا - ينبغي ان لا يختلط عندنا مع شخصين آخرين من النحاة العرب (5) وهما عبد الملك

ان الادب المخصص من طرف نحاة العرب للأغلاط العامية ، هو من بين المصادر القليلة التي تقتبس منها وضع اللهجات العربية خارج الجزيرة . وبالرغم عن كون ذلك قد وضع في شكل بسيط هو ، قل ولا تقل ، بالرغم عن كونه يعالج خاصة أغلاط الشكل فاننا نجد أيضا - الاشارة الى ما يتصل بالمصطلحات واستعمال الكلمات العربية المولدة ، وكذلك العامية المعجبة والسخيلة .

وقد نشرت معظم الكتب الهامة التي خصصت للأغلاط المرتكبة من طرف السكان الشرقيين للعالم الناطق بلغة الضاد (I) . ولكن لم نعتد لحد الآن على ما يشبه هذا بالنسبة للمغرب العربي ، رغم كون رجال التراجم قد أشاروا الى عدة مصنفات في هذا الباب والكتاب الموجز المنشور هنا (2) ليس سوى مقتطف من كتاب ابن خاتمة المرى الذي ليس هو أيضا سوى مختصر لمصنف أهم ، لمؤلفه ابن هشام السبتي . فالامر يتعلق هنا اذن للمرة الاولى بدراسة تتعلق بلهجات الغرب (الاقليم الاسباني) كما تشهد بذلك طبيعة الملاحظات الواردة في الكتاب .

- 1 - ككتب الكسائي وابن قتيبة والحريري والجرالقي وابن كمال باشا والحفاجي
- 2 - اي هسبريس . عدد I2 - الفصل الاولي - سنة 1931 (تعريب اللسان العربي باختصار)
- 3 - السيوطي ، بقية الوعاة - القاهرة 1326-ص 82
- 4 - الصواب ، «السؤال» بالتشديد ، ولم يسمه السيوطي الا بلحن العامية «البغية» ص 82
- 5 - أشار السيوطي في فهرس الاعلام الملحق بالبقية «الطبعة المذكورة» ص 437 الى ثمانية من اللغويين المشهورين الذين سموا بابن هشام .

هشام يعالجان نفس الموضوع الذي يعالجه الكتاب الذي نشره اليوم وقد سجل الكتابان تحت رقمي 46-99 من فهرس (ديرمبورك) فالكتاب المرقم بـ 46 هو كتاب الرد على الزيدي في لحن العوام وقد ذكر السيد ديرمبورك الذي درس هذا المخطوط عن كتب انه يحتوي على ملاحظات وانتقادات لا تمس الزيدي وحده (7) ولكنها تمس ايضا كتابا لابن مكى (8) هو تثقيف اللسان وتلقيح الجنان (9)

أما المخطوط رقم 99 فهو يحمل اسم كتاب المدخل المشار اليه من طرف السيوطي حسب ما سبق ان ذكره التجيبي في شأنه غير أن السيد ديرمبورك الذي قارن بين المخطوطين قد لاحظ انه بالرغم من اختلاف الاسمين فان النص واحد (راجع كتابه مخطوطات الاسكوريال العربية) ج I ص 58 .

ومن الغريب أيضا اغفال ابن الياز لهذين الالسين مع أن هذا الاخير عاش بعد وفاة ابن هشام بأقل من قرن فنل ذلك راجع الى أن الكتاب الوحيد الذي ينطبقان عليه هو أيضا الذي أشار اليه صاحب التكملة عندما أعطاه ذلك الاسم الغامض وهو كتاب في لحن العامة .

وقد جمع ابن هشام السبتي حول كتاب الزيدي عددا من الملاحظات والتصحيحات دون أن يرتبها ولا أن يحررها في شكل يجعل منها مصنفا وهذه الملاحظات هي التي نشرت عام 607-1210 من طرف تلميذ مباشر أو غير مباشر للمؤلف . هو علي بن محمد الغافقي الذي عرف باسم ابن الشاربي والذي أعانه تلميذ آخر له هو محمد بن حسن بن عطية ، ولعل هذين الناشرين هما اللذان سمي مجموعة ملاحظات ابن هشام بكتاب المدخل ، كما أن ابن هانيء قد قام بعد ذلك بقرن بترتيبها ونشرها بعنوان : « كتاب انشاد الضوال»

ابن هشام المصري المتوفى حوالي 830 - وعبد الله بن هشام القاهري المشهور المتوفى عام 1360 . أماني كتابنا هنا فالمراد هو محمد بن احمد بن هشام اللخمي السبتي الذي أفرده ابن الياز في تكملة كتاب الصلة ، بترجمة (6) ذكر فيها ان ابن هشام سكن سبتة . وكفى بأبن عبد الله ودرس على أبي بكر ابن العربي وأبن طاهر السلفي وقرأ اللغة العربية ، وهي مادة اقتص فيها واهتم بها الى جانب تدريس الادب وأنواع اللهجات الا انه لم يهتم بالشعر . وقد صنف كتابا مفيدة استعملها الناس ، ومن بينها كتاب الفصول والجمال (حيث شرح أبيات الجمل نزيجاني وصحح بعض الآراء الواهمة والالفاظ الضعيفة الواردة في الشعر المنصوص عليه عند سيبويه او تعليق الاعلم عليه) .

وكذلك ألف كتابا في لحن العامة وشرح كتاب الفصيح لثعلب والمقصورة لابن دريد . وقد قرأ أبو عبد الله ابن الغازي هذه المؤلفات على صاحبها ، ثم أقرأها بدوره ، وختم ابن الياز كلامه مشيرا الى انه أستفاد من بعض الكتب ما يشهد ان ابن هشام كان متصدرا للتدريس عام 557هـ (- 1161-1162 م) فابن هشام السبتي كان اذن معاصرا لكبار علماء اللغة الشرقيين من العصر الثاني أمثال الحريري المتوفى عام 1122 م والجزاليقني المتوفى عام 1144 وابن برى المتوفى سنة 1187 .

وقد نقل السيوطي في البغية ما أشار اليه ابن الياز مضييفا كتابين آخرين هما : (المدخل في تقويم اللسان وتعليم البيان) الذي أشار اليه التجيبي في رحلته وكذلك قطعة شعرية صغيرة اشتملت على المعاني الاثني عشر لكلمة خال والتي نسبها الى ابن هشام ابن دحية في كتاب المطرب من اشعار أهل المغرب .

ويوجد في القسم العربي بالاسكوريال كتابان لابن

6 - راجع ايضا البغية ص 16

7 - الزيدي هذا هو أبو بكر محمد بن الحسين أحدرجال اللغة في اسبانيا أصله من اشبيلية واستوطن قرطبة ودرس على القالي وتوفى عام 379-989 وهو في طبيعة اللغويين العرب في الغرب الاسلامي وله كتاب «لحن العامة» راجع التكملة ص 920 والبغية ص 34 وقد وهم بروكلمان عند ما نسب هذا الكتاب الى ابن هشام آخر عاش في مصر آخر القرن السادس .

8 - لعله جعفر بن محمد بن مكن القيسي أحد رجال اللغة في قرطبة والمتوفى سنة 535-1140 وقد ترجمه ابن بشكوال في الصلة ، وأشار اليه السيوطي في البغية ص 212 غير انهما لم يشيرا الى كتابه تثقيف اللسان رغم تخصيص ابن بشكوال على ضلوعه في اللهجات واللغات وانه جمع كتباً شتى في هذا الباب ، ولم يشر الى تثقيف اللسان الا ابن خلكان .

9 - ضبطها الاستاذ كولان بكسر الجيم والصواب فتحها «المغرب»

كل شيء أندلسية الطابع بالرغم من قيامها فوق التراب المغربي وذلك سواء من ناحيته وضعها الجغرافي أو من ناحية أصل سكانها وعلاقتهم السياسية والفكرية والتجارية .

فالبكري الذي ألف كتابه عام 1068 يذكر أن قوام سكان سبتة من العنصر العربي (من سلالة قبيلة صديف الحميرية ، ومن البرابرة المنحدرين من ارباساض أصيلا والبصرة في ناحيته الهبط . ولعلمهم نقلوا إليها من طرف الامراء الادارسة «أسرة بنى محمد» الا أن جزءا كبيرا من سكان مدينة فلشانه قرب شريش استقروا في سبتة فارين من المجاعة منذ القرن التاسع في عهد بنى عصام ولاية سبتة عن الادارسة المذكورين وفي عام 973 استولى الحكم المستنصر الاموي على سبتة وأضافها نهائيا الى مملكته ، غير أن المدينة رجعت بعد انهيار الحكم الاموي الى يد الحموديين ، وهم شعبة من ادارسة المغرب الذين ظلت عاصمتهم ومركزهم السياسي هي مالقة . وهكذا بقيت سبتة مدينة أندلسية من الوجهة السياسية من القرن العاشر الى أن استولى عليها يوسف بن تاشفين المرابطي عام 1083 واحتفظت بطابعها هذا فكريا وتجاريا على الاقل الى أن احتلها البرتغاليون عام 1415 . وقد أشرت من جهة أخرى عند دراستي للحن العامة الوارد عند بعض المؤلفين المغاربة الى أن هاتاه المصطلحات اللهجة كان معظمها أندلسي الطابع فنهذا يمكننا ان نقول على طريقة التخمين ان اللهجة العربية المغربية المتداولة في مدن الشمال وحدها ، وكذلك في قبائلها كانت قريبة جدا من عربية الاندلس ، وذلك قبل نقل بنى هلال الى المغرب عام 1188 وبالاخص قبل تطور نفوذهم السياسي في هذه البلاد (وذلك يرجع خاصة الى عهد بنى مرين ابتداء من القرن الثالث عشر) وهذا التخمين مسن شأنه أن يساعدنا على القول بأن أغلب الملاحظات التي أوردها ابن هشام بصدد دراسته لعامية سبتة تنطبق أيضا على بعض المصطلحات الاندلسية اللغوية ، ولعلنا سنتوفر يوما ما على ما يحذونا الى التفكير في خصوص ما قبل الهلاليين الى امكانية وجود مجموعة لغوية تنسجم بطابع الغرب العربي تضم الى جانب السكان الحضريين في اسبانيا المسلمة سكان المغرب ومالطة وصقلية .

وإذا ما تحققت تخميناتنا فان شجرة (IO) النسب ستكتمل بالنسبة للموجز الذي نشره اليوم وتتلخص عناصرها في :

اولا : كتاب لحن العامة الذي ألفه في القرن العاشر الزيبيدي الاندلسي وهو من أقدم اللغويين العرب الذين اهتموا باللحن ، (على أنه يظهر ان أقدم اللغويين هو الكسائي العراقي المتوفى حوالي سنة 805-190 .

ثانيا : تثقيف السان وتلقيح الجنان الذي صنفه ابن مكي القرطبي في النصف الاول من القرن الثاني عشر .

ثالثا : ما جمعه ابن هشام السبتي من تصحيحات واضافات في النصف الثاني لنفس القرن حول الصنفين المذكورين .

رابعا : كتاب المدخل في تقويم اللسان وهو عبارة عن المذكرات المشار إليها ، جمعها ونشرها عام 1210 تلميذان لابن هشام .

خامسا : رتبت هاته المذكرات خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر الميلادي من طرف ابن هانيء السبتي الذي نشرها باسم انشاد الضوال .

سادسا : مختصر ابن خاتمة المرى باسم ايراد اللال خلال النصف الثاني للقرن الرابع عشر .

سابعا : ثم جاء شخص مجهول في عصر غير محدد فاستخلص هذا الموجز الذي نشره وبالرغم من كون ابن هشام قد جمع في سبتة مواد كتابه الاول ، فمن الجازفة الادعاء ان ما ورد فيه من لغويات يتسم خاصة بطابع مغربي . فاذا كانت بعض المصطلحات المشار إليها في هذا الكتاب قد انفردت بها افريقيا الشمالية على ما يلوح (II) فان اغلب ملاحظات ابن هشام تنطبق على لغويات دقيقة ملحوظة في اللهجات الاندلسية ، وينبغي مع ذلك ان نعترف بان معلوماتنا عن هاتاه الاخيرة أكثر منها عن اللهجات المغربية القديمة التي تعوزنا عنها وسائل المقارنة .

على أنه لا ينبغي ان نفعل عن كون سبتة هي قبيل

IO - هذه الشجرة هي عبارة عن لائحة ما صنف في المغرب الناطق بلغة الضاد حول أغلاط العامة ولعل الكتاب الوحيد الذي لم يشر اليه هو «كتاب الفوائد العامة» في لحن العامة لابن القاسم محمد بن أحمد بن جزى الكلبى الغرناطي المتوفى عام 741-1340 والذي هو أحد شيوخ ابن الخطيب ووالد محرز مذكرات «رحلة ابن بطوطة» (نفسح الطب) مطبعة بولاق عام 1279 ج 3 ص 272 .

II - مثل وادي يليان وهينورة ومرتد ومشمش ومسجد ومسيد